التأويل في القرآن الكريم
دراسة في الاتجاهات المهمة

التأويل في اللغة

التأويل من الثلاثي المجرد (أول)، وهو بمعنى الرجوع إلى الأصل، ومنه: الموئل للموضع الذي يُرجع إليه، فالتأويل رد الشيء إلى الغاية المرادة منه[١]. فمعنى الأَوْلُ: الرجوع، وآل الشيءُ يَؤُول أَولاً ومآلاً: رَجَع. وأَوَّل إِليه الشيءَ: رَجَعَه[٢]. وفي معجم مقاييس اللغة: (أول) الهمزة والواو واللام أصلان ابتداء الأمر، وانتهاؤه[٣].

التأويل اصطلاحاً

التأويل في الاصطلاح وقع فيه خلاف، وهناك ستة اتجاهات رئيسة مهمة فيه:

الاتجاهات الرئيسة في مفهوم التأويل

الاتجاه الأول:

أن التأويل مرادف للتفسير، فهو تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه،[٤] وهو اتجاه ذهب له القدماء من العلماء، وأبرزهم ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، فقد كان كثير الاستعمال لكلمة التأويل بمعنى التفسير، حتى أن عنوان كتابه في التفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن. وكان يكثر في هذا الكتاب القول: "في تأويل قوله تعالى..." وهو يقصد في تفسير قوله تعالى[٥]. وبناء على هذا الرأي يكون لكل آيات القرآن تأويل، عدا المتشابه لقوله تعالى: **(وما يعلم تأويله إلا الله)**[٦].

الاتجاه الثاني:

أن التأويل هو ذات المراد بالكلام خارجاً، فيكون التأويل خارجاً عن المعاني الذهنية المرادة باللفظ، بل هو الأمر العيني المدلول عليه بالكلام. وهذا الاتجاه مرتبط بالمعنى

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٣١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج ١١ ص ٣٢.
(٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ١ ص ١٥٨.
(٤) الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٢٨.
(٥) التفسير والمفسرون، الذهبي، ج١، ص١٥.
(٦) انظر تفسير الميزان، الطباطبائي، ج٣، ص

اللغوي لمفردة التأويل التي تعني ما يؤول إليه الكلام ويرجع. وهو ما اختاره ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ).

وتوضيح ذلك: الكلام تارة يكون طلباً (جملة إنشائية مثل الأمر والنهي ونحوهما)، وأخرى يكون خبراً (جملة خبرية قابلة لوصفها بالصدق والكذب)، فلو كان إنشاء كما لو كان أمراً بالصلاة مثلاً، كان تأويل هذا الكلام هو ذات الفعل المطلوب عندما يتحقق امتثاله خارجاً. وأما لو كان الكلام خبراً، هنا ينقسم هذا الكلام إلى قسمين: كلام وإخبار عن الماضي، والثاني: كلام وإخبار عن المستقبل.

في القسم الأول يكون التأويل هو تحقق الواقعة والحدث في ظرف زمنه الماضي، من قبيل الآيات التي تضمنت الإخبار عن الأنبياء والأمم الماضية.

والقسم الثاني: أن يكون الإخبار عن الحوادث والأمور الحالية والمستقبلية، وهذا يمكن تصوره عل نحوين: **النحو الأول:** أن يكون ما أخبر به مما تدركه الحواس والعقول البشرية، وتأويل هذا النحو يكون بتحقق الواقعة في الخارج في ظرفها الزماني الحالي أو المستقبلي، كما في قوله تعالى: **(غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)**، فتأويل ذلك هو وقوع الانتصار للروم في زمانه.

والنحو الثاني: أن يكون الخبر من القضايا التي لا يمكن إدراكها بالحس ولا يمكن للعقل أن يحيط بكيفياتها، كأحداث يوم القيامة ووقائعها ويوم الحساب وأحداثه، فلا يمكن للحس ولا للعقل أن يحيط بها وبكيفياتها. وتأويل هذه الأمور يكون نفس حقائقها الخارجية أيضاً في ظرفها المستقبلي. لكن الفارق بين النحوين أن الثاني مما يختص بعمله الله تعالى دون الأول.

وبتعبير أكثر وضوحاً: تأويل الأخبار: في هذا النحو هو عين المخبر إذا وقع خارجاً، كقوله تعالى: **(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق...)** فقد أخبر الله تعالى أنه فصل الكتاب، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله، أي مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك.

فحينئذ يقولون بعد وقوع ذلك: **(قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء...)**[٧].

وهكذا هذا يمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا النحو الثاني، بمعنى حقيقة ما يؤول إليه الأمر، وهو أغلب ما يرد في القرآن، ومنه قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)** يعني ما تؤول إليه الرؤيا من الأحداث خارجاً، وكذلك قوله تعالى **(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين)** يعني أخبرنا بما يؤول إليه الأمر، وماذا سيقع من أحداث بحسب هذه الرؤيا.

وبهذا البيان يتضح الفرق بين الاتجاه الأول والثاني، يقول ابن تيمية: "**وبين هذا المعنى والذي قبله بونٌ؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير والشرح والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلة**"[٨].

وهو يعني أن الاتجاه الأول في التأويل يقوم على علاقة باللفظ والمفهوم الذهني لهذا اللفظ بحسب ما وضع له في اللغة، فاللفظ والمعنى كلاهما له وجود لفظي ووجود ذهني، والتأويل هو شرح معنى اللفظ وإيضاحه، بينما الاتجاه الثاني ليس كذلك، بل التأويل فيه يعني ذات الأمور الموجود في الخارج بما هي حقائق لها تعين خارجي. وهذا لا يعتمد على الكلام بل لابد من العلم والإحاطة بذلك بغير الكلام والإخبار، نعم يكون الوجود الذهني طريقاً لهذا التأويل إذ بدون اللفظ وما يحدثه من معنى ذهني تقريبي وإن لم يكن بنحو كامل لا يمكن التأويل العيني الخارجي.

ويحاول توضيح الفكرة يقول: فإذا قيل: طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها. ويكون "التأويل" من باب الوجود العيني الخارجي، فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها، وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والإخبار إلا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وإخبار؛ لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب: إما بضرب المثل وإما بالتقريب وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها وإما بغير ذلك. ثم يقول: وهذا الوضع هو

---

(٧) انظر: مباحث في علوم القران، مناع القطان، ص٣٣٦.
(٨)

لغة القرآن التي نزل بها[٩]. ويترتب على هذا أن نفي علم التأويل في الآية لا يلزم منه نفي العلم بالمعنى[١٠]. وهكذا يجمع ابن تيمية بين كون القرآن كتاب هداية وأن جميع آياته قابلة للفهم[١١] بمقتضى ذلك، وبين نفي العلم بالتأويل وحصره بالله أو بالله والراسخين في العلم. فجميع القرآن يمكن فهمه لكن ليس بالضرورة أن يتم العلم به جميعاً، ففرق بين الفهم والعلم[١٢].

ومثال ذلك التطبيقي قوله تعالى: **(الرحمن على العرش استوى)** فمعنى الاستواء معلوم ولا غموض فيه، لكن كيفية الاستواء بالنسبة لله تعالى مجهولة، والإيمان بمعنى الاستواء والكيفية المجهولة واجب. وكذلك قوله تعالى: **(إنني معكما أسمع وأرى)** فالسمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول[١٣]. ولا يقتصر التأويل على الصفات الإلهية بل يشمل غيرها مثل قوله تعالى: **(والذاريات ذرواً)** فالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر وكذلك في قوله تعالى: "الجاريات يسراً" "فالمقسمات أمراً" فهذا لا يعلمه إلا الله[١٤].

وجدير بالذكر هنا هذا الاتجاه لا يخصص التأويل بالمتشابه من الآيات القرآنية، بل يشمل كل آيات القرآن من المحكم والمتشابه[١٥].

الاتجاه الثالث:

إن التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح والظاهر إلى المعنى المرجوح أو غير

---

(٩) الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٢٨-٢٩.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤٤.

(١١) كما في قوله تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) وقوله: (قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) وقوله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب المبين) وقوله تعالى: (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه. وقوله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه، ولم يستثن من ذلك شيئاً؛ بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). انظر: الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٤٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص٤٦.

(١٣) الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٤٧-٤٩.

(١٤) المصدر نفسه: ص٥١.

(١٥) الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٤٤.

الظاهر، لدليل يقترن به. هذا هو معنى التأويل عند علماء الأصول والفقه والكلام المتأخرين[١٦]. فقوله تعالى: **(الرحمن على العرش استوى)** من الآيات المتشابهة، وظاهر الكلام هو الاستواء بالكيفية المعروفة التي نعرفها (المعنى الراجح)، ولكن حيث ذلك ممتنع على الله تعالى، لأنه يؤدي للقول بالتجسيم، فهذا دليل على صرف اللفظ عن معناه إلى معنى آخر ليس ظاهراً من اللفظ (المعنى المرجوح) وهو القوة والاستيلاء مثلاً. ووفق هذا القول ليس لكل الآيات تأويل، وإنما يختص ذلك بالآيات المتشابهة التي لا يحيط بعلمها إحاطة كاملة إلا الله تعالى؛ كالآيات الظاهرة في الجسمية والمجيء والاستواء والرضا والسخط والأسف، وغيرها من الأوصاف المنسوبة إل الله تعالى.

الاتجاه الرابع:

التأويل هو المعنى الباطني، فهو معنى من معاني الآية، لا يعلمه إلا الله تعالى أو لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، مع فارق بينه وبين الاتجاه الثالث، أن المعنى المتأول هنا ليس مما يخالف ظاهر اللفظ، وذلك بافتراض أن للآية المتشابه معاني متعددة، بعضها مترتب على الآخر، وهذا الترتب من قبيل المعاني المطابقية والالتزامية للّفظ الواحد، ومنها ما هو واضح يفهمه الجميع كالمعنى المطابقي، ومنها ما هو أبعد منه كأحد المعاني الالتزامية، لا يعلمه إلا الله سبحانه أو هو تعالى والراسخون في العلم. ولتقريب الفكرة: لو قال المتكلم "اسقني" فلهذا الأمر الطلبي أربعة معان، أولها: طلب السقي، والثاني: طلب الإرواء ورفع العطش، والثالث: رفع حاجة وجودية للمتكلم، والرابع: طلب كمال وجودي، هذه المعاني ليست أوامر أربعة بل هي معان مترتبة بعضها على بعض، فالطلب الواحد المتعلق بالسقي متعلق بعينه بهذه الأمور التي بعضها في باطن بعض[١٧].

الاتجاه الخامس:

التأويل هو من قبيل الأمور الخارجية، فليس هو مفهوما من المفاهيم تدل عليه الآية سواء كان مخالفا لظاهرها أو موافقاً، لكن ليس كل أمر خارجي هو تأويل، حتى يكون

---

(١٦) الإكليل في المتشابه والتأويل، ابن تيمية، ص٢٧.

(١٧) انظر: تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ٣ ص ٤٤.

المصداق الخارجي للخبر تأويلا له، بل التأويل أمر خارجي مخصوص، نسبته إلى الكلام نسبة الممثل إلى المثل (بفتحتين) والباطن إلى الظاهر، وهذا هو الرأي الذي يذهب له صاحب تفسير الميزان. وهذه الأمور الخارجية من الأمور العينية المتعالية التي لا يمكن أن تحيط بها الألفاظ، وإنما قيدها الله تعالى بقيد الألفاظ؛ لتقريبها للذهن، فهي كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع كما قال تعالى " والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم"(١٨).

وتوضيح ذلك بحاجة إلى ذكر مجموعة من الأمور:

التأويل عند العلامة الطباطبائي

يقوم رأي الطباطبائي في التأويل على عدة مقدمات:

الأولى: أن القرآن له وجودان، وجود مفصل نزل تدريجاً على النبي وهو القرآن في المصحف، ووجود آخر لهذا القرآن وهو وجود غير مفصل نزل دفعة على النبي (ص) محفوظ، حقائقه متعالية لا يدركها ولا يمسها إلا النفوس الطاهرة. قال في الميزان: "وبالجملة فإن المتدبر في الآيات القرآنية لا يجد مناصاً عن الاعتراف بدلالتها: على كون هذا القرآن المنزل على النبي تدريجاً متكئاً على حقيقة متعالية عن أن تدركها أبصار العقول العامة أو تناولها أيدي الأفكار المتلوثة بألواث الهوسات وقذارات المادة، وأن تلك الحقيقة أنزلت على النبي إنزالاً، فعلمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه"(١٩).

والتفصيل والإحكام مدلول قوله تعالى: **(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)** فالإحكام هنا مقابل التفصيل، فثمة للقرآن حقيقة لم تكن مفصلة ثم فصلت(٢٠).

ويفرق العلامة الطباطبائي بين الإنزال والتنزيل، يقول في تفسير قوله تعالى: **(شهر رمضان الذي أنزل فيه القران...)** النزول هو الورود على المحل من العلو، والفرق بين الإنزال والتنزيل أن الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي، والآية تدل على نزول القران في شهر رمضان، وقد قال تعالى: **(وقرانا فرقنا لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً)** والظاهر انه نزل

(١٨) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ٣ ص ٤٦-٤٩.
(١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧.

تدريجاً[٢١].

كما أنه يعتمد على ظهور بعض الآيات في أن القرآن المبين أو الكتاب المكنون لا يمسه إلا المطهرون أي لا يفهمه أو لا يحسن فهمه على حقيقته، يقول في تفسير قوله تعالى: **(فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين)**[٢٢]، فإنه ظاهر في أن للقرآن موقعا هو في "الكتاب المكنون" لا يمسه هناك أحد إلا المطهرون من عباد الله وإن التنزيل بعده، وأما قبل التنزيل فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار وهو الذي عبر عنه في آيات الزخرف، بأم الكتاب وفي سورة البروج، باللوح المحفوظ، حيث قال تعالى: **(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)** البروج – ٢٢، وهذا اللوح إنما كان محفوظا لحفظه من ورود التغير عليه، ومن المعلوم إن القرآن المنزل تدريجا لا يخلو عن ناسخ ومنسوخ وعن التدريج الذي هو نحو من التبدل، فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل أمر وراء هذا المنزل، وإنما هذا بمنزله اللباس لذاك[٢٣].

الثانية: هذا القرآن الثابت في لوح محفوظ يمثل حقيقة القرآن الأصيلة، فهو يتضمن واقع الأحكام الشرعية وواقع التعليمات والمواعظ والإرشادات، وقد عبر عنه القرآن بالكتاب المبين وبأم الكتاب ونحوه. ولا يوجد تناقض بين كون القرآن في لوح محفوظ قد نزل دفعة واحدة على قلب النبي (ص) وبين كونه نزل تدريجاً، وقد حدث فيه تبديل وتغيير بسبب الناسخ والمنسوخ.

يقول في هذا السياق: ثم إن هذا المعنى أعني: كون القرآن في مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين – ونحن نسميه بحقيقة الكتاب – بمنزلة اللباس من المتلبس وبمنزلة المثال من الحقيقة وبمنزلة المثل من الغرض المقصود بالكلام هو المصحح لان يطلق القرآن أحياناً على أصل الكتاب كما في قوله تعالى: **(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)**، إلى غير ذلك، وهذا الذي ذكرنا هو الموجب لان يحمل قوله: شهر رمضان الذي أنزل فيه

(٢١) المصدر نفسه ص ١٥.
(٢٢) الواقعة: ٨٠.
(٢٣) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ٢ ص ١٧.

القرآن، وقوله: إنا أنزلناه في ليلة مباركة، وقوله: إنا أنزلناه في ليلة القدر، على إنزال حقيقة الكتاب والكتاب المبين إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفعة كما أنزل القرآن المفصل على قلبه تدريجاً في مدة الدعوة النبوية(٢٤). والذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب أن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه، إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى: **(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)**: البقرة – ١٨٥ وقوله تعالى: **(حم. والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة)**: الدخان – ٣، وقوله تعالى: **(إنا أنزلناه في ليلة القدر)**: القدر – ١، لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يقضى فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدريج هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي ونازلا بالإنزال دون التنزيل(٢٥).

الثالثة: أن نسبة حقيقة القرآن المفصل وهو المكتوب والمقروء والمسموع إلى القرآن الواحد غير المفصل نسبة الجسد إلى الروح، وعلاقة اللباس بذات المتلبس، فالقرآن بوجوده الثاني أُلبس لباس الألفاظ والكلمات حتى يمكن فهمه للناس؛ لعدم قدرتهم على فهم حقيقة القرآن الأصيلة، والألفاظ والكلمات فيها عجز ذاتي عن نقل حقيقة القرآن ومعارفه للأفهام عن طريقها، ولهذا تعد هذه الكلمات والألفاظ من قبيل المثال إلى الشيء الممثل له، فكما أن المثال مجرد إشارة ورمز لإيصال الفكرة والغرض الأصلي في الممثل له، كذلك القرآن المكتوب أو المقروء بالنسبة للقرآن الأصيل.

وهذا القرآن بكلماته ومفرداته وجمله فيه إشارة رمزية إلى الحقيقة المخفية وراء ستار هذه الألفاظ ومعانيها. القرآن التدريجي جسد والقرآن المبين روح، فحقيقة القرآن لها جانبان.

يقول الطباطبائي في قوله تعالى: **(حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)** الزخرف – ٤. ظاهر في إن هناك كتابا مبينا عرض عليه جعله مقروءاً عربياً، وإنما ألبس لباس القراءة والعربية ليعقله الناس وإلا فإنه – وهو في أم الكتاب – عند الله، علي لا يصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل

(٢٤) المصدر: ص ١٨.
(٢٥) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ٢ ص ١٦.